زينب صوت الحق... و نداء الثوره

كوثر مهدى ـ مدرس

زينب التي يعجز البيان عن ذكر بطولاتها، و يكلّ اللسان عن احصاء محاورها و ينحسر القلم اجلالاًلعظمتها...

زينب التي أرهبت الطغاة بصلابة موقفها، و أدهشت العقول برباطة جاشها، و عجبت الجبال الراسيات لقوة صبرها...

زينب التي خلد ذكرها مع ذكر اخيها الامام الحسين، فأضحت للنساء منهجاً و للاباة معلماً و للتاريخ فرقدا.

نعم انها سليلة النبوة و بقية الصفوة و قرة عين الرسول و مهجة قلب البتول التى ولدت فى معقل العصمة و التقى، و تربّت في مهبط الوحي و الهدى، و تغذّت بلبان الايمان و نشأت فى حجر الاسلام و ورثت شرائف الصفات و فضائل الاخلاق من أصلها العظيم وكل محتد كريم، وكيف لا و ان جدها المصطفى سيد الانبياء و المرسلين و أباها المرتضى سيد الاوصياء و المتقين و أمها فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين و أخويها السبطين الحسن و الحسين، فراحت تسطّر ملاحم الفخر العلوي بشجاعة أبيها، و تفرغ الحكمة ببلاغة أمها و تواجه ضروب المحن و الابتلاءات بحلم أخيها الحسن﴿عليه السلام﴾. و تثبت أمام جليل المصائب بصبر أخيها الحسين﴿عليه السلام﴾ حتى استطاعت أن تقوم بأعظم دور تاريخى فى مواجهة الظالمين و تقريع الأمة حين تتخاذل عن نصرة دينها، و نشرت أصداء الثورة الحسينية و بلّغت رسالة دم سيد الشهداء و الدماء التي أريقت ظلماً على رمضاء كربلاء.

شاءالله أن يراهنّ سبايا

لكل ثورة لابد من توفر جانبين حتى تستكمل شرائط نصرها، الجانب الاول: و هو الشهادة أو الدم و الجانب الثاني: نشر رسالة الدم، و لما رأى الامام الحسين﴿عليه السلام﴾ الوضع المأساوي الذي أخذت تعيشه الأمة أنذاك حيث انقلبت الموازين الاسلاميه و تغيّرت المقاييس الحقّه، و استولى على منبر رسول الله حكاما أظهروا الفساد و عطّلوا الاحكام و استحلوا المحارم و أماتوا السنه و أظهروا البدعة، و أهلكوا الحرث و النسل و ساروا بعباداللّه ظلما و عدواناً، لم يستطع سبط النبي﴿صلى الله عليه وآله﴾ ان يرىٰ دين جده رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ بهذه الحالة، فانتهض ثائرا، و أعلن رفضه البيعة ليزيد الفسروق و الفجور و رأى نفسه مسؤولاً اكثر من غيره لتغيير هذا الوضع المتردى، فصرّح في اكثر من مناسبه مشيراً الى ذلك (ألا ترون الى الحق لا يعمل به والى الباطل لا يُتناهى عنه فليرغب المؤمن فى لقاء ربه فحقاً اني لا أرى الموت الاسعادة و الحياة مع الظالمين الا برما) و قال أيضاً: (ألا إن هؤلاء قد أظهروا طاعة الشيطان و تركوا طاعة الرحمان و اتخذوا مال الله دولا و عباداللّه خولا، و أنا أحق من غير)

و استمر معلناً الرفض للواقع الاموي و لقيادة يزيد الطاغيه للأمه الاسلامية، و بيّن هويته الكافره و عدم استحقاقه لتولى زمام الحكم و قيادة المسلمين فقال﴿عليه السلام﴾ (إنا أهل بيت النبوة، بنا فتح الله، و بنا يختم، و يزيد شارب الخمور، و راكب الفجور، و قاتل النفس المحترمة و مثلى لا يبايع مثله) ثم انه وضع المسلمين أمام وظيفتهم الاسلامية الحقيقية في ضرورة تغيير الحاكم الجائر و إقامة شرعالله و حدوده فقال﴿عليه السلام﴾ (ايها الناس إنى سمعت رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ يقول: من رأى منكم سلطانا جائراً

مستحلاً لحرم الله، ناكثاً بيعته يعمل في عباد الله بالاثم و العدوان فلم يغيّر عليه بفعل أوقول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله). فلما لم يعد ينفع النصح و الارشاد مع المجتمع الذى أمات الدرهم و الدينار و السيف و الحديد وجدانه الاسلامى و قيمه الثورية، رأى ريحانة المصطفى أن يكسر حاجز المادة العمياء و إرهاب الحديد و النار و ان يحيى الضمائر الميتة و القلوب الضعيفه المتلونه بهزة عنيفة و ثورة عارمة ليس منطقها الوعظ و النصيحة و انما منطقها الشهادة و الدم، لذا فانه صمم على مجابهة القوم و أعلن ذلك مرارا لمن كان يعترضه من الاصحاب و الأقرباء و يمنعه من الخروج الى كربلاء فيقول﴿عليه السلام﴾: شاءالله أن يراني قتيلا.

وبما أن سفر الامام الحسين﴿عليه السلام﴾ كان محفوفاً بالمخاطر، فقد ناشده شيوخ بني هاشم أن لا يصطحب معه النساء و الصبيان. فهذا محمدبن الحنفية أخو الامام الحسين طلب من أخيه أن لا يخرج الى كربلاء، فأخبره الامام الحسين بعزمه قائلاً: أتاني رسول الله(في المنام) و قال لي: يا حسين اخرج فان الله شاء أن يراك قتيلا. عندها تسائل محمدبن الحنفيه فما معنى حمل هؤلاء النسوة و الأطفال و أنت خارج على مثل هذا الحال. فكان جواب الامام على تساؤل هؤلاء المشفقين على مستقبل نسائه و عائلته أشد إثارة و غرابة حيث قال﴿عليه السلام﴾ قد شاءالله ان يراهنّ سبايا.[1]

لانه سلام‌الله عليه كان يرى في حمله للنساء امتداد ثورته و نشر اصداء رسالته و خاصة في اخته الحوراء زينب﴿عليها السلام﴾ التي حملت لواء الثورة بعد مقتل أخيها الحسين و حققت ما أراده أخوها الحسين لهذا نراها كانت ترد على كل من كان يناشد الحسين بأن لا يحمل معه النساء و الاطفال و تقف أمام كل من يريد أن يفصل بينها و بين مواكبة النهضة الحسينية.

يروي الشيخ النقدي في كتابه "زينب الكبرى": ان السيدة زينب اعترضت على نصيحة ابن عباس للامام بأن لا يحمل معه النساء: فسمع ابن عباس بكاءاً من ورائه و قائلة تقول: يابن عباس تشير على شيخنا و سيدنا أن يخلفنا هاهنا و يمضي وحده؟ لا و الله بل نحيا معه و نموت معه و هل أبق الزمان لنا غيره؟ فالتفت ابن عباس و اذا المتكلمة هي زينب.[2]

من هنا فان الامام الحسين رأى ان الشق الاول من ثورته مرهون بدمه و دماء الصفوة من ولده و أهل بيته و أصحابه، و ان الشق الثاني من الثورة مرهون بسبي النساء و ما يستتبع ذلك من نشر رسالة دماء اولئك الشهداء الذين تضرّجوا بدمائهم فداءاً للعقيدة و اعلاءاً لكلمة الحق، و سوف نرى فيما يلي من البحث كيف استطاعت عقيلة بني هاشم و الحرائر من بيت الرسالة و الطهارة ان يزيحوا ستار التضليل و الخداع و يكشفوا هوية الطاغية يزيد و أعوانه الظلمة و الجريمة النكراء التي ارتكبها بحق أهل بيت التق و الطهارة.

الاختيار الصائب

لم يكن اختيار الامام الحسين لاخته زينب لأن تكون شريكة ثورته و القائده لها بعده قد جاء من قبيل المصادفه أو إنه كان و ليد ساعته، بل ان الامام الحسين كان يرى في الحوراء زينب القدرات و الكفاءات الكاملة التي تستطيع أن تؤدي بها هذا الدور العظيم الذى أنيط بها و هذه المسؤوليه الثقيلة التي ضعف عن ادائها كبار الرجال. و قد كانت للاحداث الكبيرة و المحن الشديدة التي مرت بها السيده زينب و منذ نعومة اظفارها الاثر الكبير في تهيئتها و صناعة شخصيتها للدور الكبير الذي ينتظرها، فلم يكن البيت الذى نشأت فيه هذه الوليده يطبق جفن على مأساة إلا وداهمته الايام بمأساة اخرى و سهام قاضية اخرى فمنذ صغرها عاشت هموم الرسالة في مهبط الوحي و مع جدها المصطفى حتى حلّت اول و مصيبته بها و بأهل بيتها في فقدهم السيد المرسلين فشاركت أمها أحزانهاو المآسي و الحوادث المؤلمة التي قاستها، و ما أورث ذلك من ألم أوجع قلب زينب الصغير الذى ما قدر له أن يهنأ بحنان الامومة لأكثر من خمس سنوات، حيث ودعت أمها الودود(الزهراء البتول) الدنيا و بين أضلعها اكثر من مصيبه و مصيبة القت بثقلها على البيت العلوي، و رحلت الأم شهيدة مضطهدة مقهورة و تركت زينب و هي صبية في اوائل سني حياتها ممازاد في مسؤولية زينب و صقل شخصيتها على حداثة سنها. فبالأمس وعدت أمها و

---

۱) زينب الكبرى للشيخ النقدى

۲) فى رحاب السيده زينب (محمد بحرالعلوم، ص ۱۰۸-۱۰۹

اليوم تعيش ثقل المصائب و الفتن التي توارادت على أبيها و هو الفارس المقدام الذى شهدت له ساحات الوغى ولكنه صبر و صبر حرصاً منه على بيضه الاسلام، فورثت ذلك الصبر الذي كان افضل ذخيرة لها في قابل زمانها.

و رافقت أباها يا محنته بعد استلامه للحكم و فتن الناكثين و القاسطين و المارقين و التي ما انتهت الا باخماد شمس الولاية و الامامه حيث خضبوا أباها بدمه صريعاً في محراب صلاته، و كان لهذا الامر وقع كبير على نفس زينب التي تقف معها الاقدار عند هذا الحد حتى رأت كبد أخيها الحسن مقطعاً أمامها، فما تدري على أي مصيبته تصبر و أيها تنسى و أيها تتذكر. ولكن كل ذلك كان يمحصها و يزيد في صلابتها و يعطيها البصيرة و الثبات.

ولم يمض زمناً على بنت علي حتى انتهض أخوها سيدالاحرار رافضاً طاغية زمانه معلناً الثورة ضده و لم تكن عقيلة بيت الوحي بالتي تخفى عليها الامور أو تلتبس عليها لوابس الزمان بل كانت تعيش في ساحة الصراع و على علم بالاحداث التي تجري حولها و كانت تعلم ما يريد أخوها الحسين﴿عليه السلام﴾ من وراء قيامه، لهذا فانها ناصرته و أيدته و اختارت الخروج معه و تركت زوجها و ديارها و قررت الذهاب الى هذه الرحلة الشاقة التي كانت من أجل الحق و إقامه قواعده و ارساء مبادئه.

قبيل الرحيل

بعد ان استأذنت زينب﴿عليها السلام﴾ زوجها عبدالله بن جعفر في الخروج مع أخيها الحسين﴿عليه السلام﴾ الى العراق، وبقي أمرٌ آخر اخذ يتلجلج في صدرها و هي لا تريد أن تبثه لزوجها بل تريد ان يبادرها هو به و هي تعلم قبلاً مدى منزلة الامام الحسين في قلب زوجها و كيف انه كان يتمنى أن يكون برفقة الحسين في ثورته لولا مرضه الذى انكفأ بسببه عن السفر و بقيت زينب تتنظر الاشارة من زوجها، و علم الزوج ما يجول في خاطر زوجته، فقال لها:

و هل تقبلين أن يكون ولدانا محمد و عون في ركاب خالها؟[1] فاستبشرة بنت المكارم بهذا الامر الذى سيزيدها فخراً الى فخر و إن كان هو امراً صعباً على كل أم ففيه فراق الاكباد و قتل المهج، ولكن هل ترضى سليلة المختارات تقدم الامهات اولادهنّ قرابين في عرس الشهادة و هي لا تنال ذلك الشرف و الوسام الكبير و لا تواسيهن في عزائهن؟ و هي السباقة الى الفضائل و المكرمات. فخرجت الى كربلاء برفقة ولديها اللذين برّا بوالديهما و استشهدا في ملحمة الطف و الاباء.

سيدة الموقف

كانت زينب مثال المرأة الواعية و المتواجدة في ساحات العمل و مواقع المسؤولية و العالمة بما يجري حولها من أحداث و مستجدات، فلم يكن يخفى على زينب طبيعة الانطلاقة الثورية التى هاجر لاجلها أخوها الحسين من المدينة الى مكة و من ثم الى كربلاء و لم تكن بعيدة عن المضايقات الشديدة و المؤامرات الخبيثة التى كان يقوم بها أزلام بنى أميه لصد الحسين عن ثورته و محاولتهم لاطفاء جذوتها و قتلها في مهدها الأوّل في مكة و قبل توجه القافلة الى كربلاء، و فى هذا كله كانت زينب تراقب الاحداث عن كثب و تسمع الاخبار التى كانت تنبئ عن انقلاب الناس عن اخيها و خذلا نهم لسغيره (مسلم بن عقيل) وترى تصميم أخيها الحسين على مواجهة الموقف رغم تحول شيعته عن بيعتهم له و دخولهم فى طاعة ابن‌زياد ـ الذى مافتأيستخدم معهم الترغيب و الترهيب حتى انقاد له البعض تحت بريق المادة والطمع،ورفض الاخرون فاصبحوا طعمة للقتل و السجن و التعذيب.

و رغم كل هذا كانت زينب سيدة الموقف فى الركب الهاشمى، فكانت لاتفتأ تشحذ العزائم و تحرك الهمم و تحرض الناس على نصرة دين الله و مبادىء ثورة اخيها الحسين حتى انتهى الركب الى أرض كربلاء و سمعت أخاها يقول:ها هنا محط رحالنا و سفك دمائنا و محل قبورنا، بهذا حدثنى جدي رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾

فعرفت من ذلك الصبح القاتم الذى كان ينتظر هذه الصفوه الطاهرة، و الموقف الكبير الذى كانت ينتظرها هى، حتى كانت ليلة العاشر من المحرم عام ٦١ هـ حيث دخلت على أخيها الحسين﴿عليه السلام﴾، فسمعت منه كلاماً كان ينبىء عن عزمه على الشهادة و لقاءالله، و عن عاشوراء الدم و التضحيات، فعرفت ان يوم الفصل قد حلّ، و ان مسؤوليتها العظمى قد بدت أشراطها، فأوقفها الامام الحسين على ما سيجرى عليها و على أهل بيتها و أمرها

---

١) ذكر ذلك السيد البيرجندى و هو مدوّن فى كتب السير

بالصبر و الثبات و التحمل و قيادة الامر من بعده، فجاءت تلبيتها و قبولها لداعي الله و ربانيّ آياته واضحاً في يوم الملحمة في ارض لطف.

حيث كانت عينا زينب و قلبها وراء كل شهيد، و وراء كل دم ينساب بغير حق و رؤوس تقطع من غير ذنب و أضلاع تكسر تحت حوافر الخيول. و هي فوق ذلك كانت مسؤولة عن المحافظة على العليل الذي كان يتلظى بنار الحمى، و مسؤولة ايضاً عن تهدئة النساء و اسكات الاطفال الذين قد روعتهم مناظر الدماء و عصر قلوبهم فقد الاباء، وأرهقهم الجوع و العطش و شدة الموقف.

و كانت تتلقى الشهداء بقلبها الكبير حتى آخر شهيد و هو الطفل الرضيع تلقته مخضباً بدمه، و أخفته عن عين أمه لان الام لا تستطيع أن ترى ولدها بهذه الحالة، و قد رأت آم المصائب كل اولئك الرياحين مخضبين بدمائهم و رأت ولديها محمد و عون ولكنها لم تبكهما ولم تنادي عليهما يا ولداه، لانها كانت أم جميع الشهداء و دمعة كل الأرامل والايتام، فلله صبرك يا زينب، فصبرك غريب عجزت عن ثقله الجبال الراسيات و بكته الملائكة في السموات، و احترقت له القلوب و انهمرت له الدموع دما.

و ربما كانت كل تلك المصائب تهون على زينب ان كان سبط المصطفى قد بقي حيا، لهذا كان الانكى لقلبها و الاشد مصاباً عليها مقتل ابي عبدالله﴿عليه السلام﴾ فقد أنهك قواها و أدمى قلبها ولكنا سرعان ماتذكرت وصية أخيها الحسين فأخفت عبرتها و سكنت دمعتها و استعدت لدورها الذي بدأ بعد أن خمدت أنفاس الطيبين و انطفات انوار الصالحين

و حملت الراية

بعد الظهيرة الدامية، هدأ هدير الحرب و سكنت الانفاس و أغمدت السيوف و طرزت أرض كربلاء بأشلاء الطاهرين و جثث الطيبين، عندما حملت المعجزة المحمدية و اللبوة الحيدرية، زينب الهدى راية الثورة و لم تدعها تسقط الى الارض بشهادة أهلها، فبادرت و في تلك اللحظات الرهيبة التي يتلكأ اللسان عن ذكرها و يتعرى البيان عن وصفها و تنهزم العزائم أمامها إلا عزيمة زينب الكبرى، الى إحداث اول هزة نفسية في صفوف الجيش الاموي الذي أعمته المادة وأماتت ضمائره عظم الخطيئة. فكبتت حسراتها و كفكفت دموعها و خرجت بكل ثبات و رباطة جأش تقصد جسد أخيها الحسين و هي تعول و تقول: ليت السماء أطبقت على الارض و اخترقت الصفوف و انفرج لها الجيش سماطين، و وقفت بجانب الجسد و قلبها المهول بعظم المصيبة لا يقوى على تحمل هذا الموقف الذي تزلزلت له السماوات والارضين و لكنها تسلّحت بقوه الله و عزم علي و صبر فاطمه و نادت جدّها:

يا جداه يا محمد اه صلى عليك ملائكة السماء هذا حسين مرمل بالدماء، مقطع الاعضاء مسلوب العمامة و الرداء و بناتك سبايا فإلى الله المشتكى.

ثم تقدمت نحو الجسد الذي كان جثة بلا رأس، و خضبت جبهتها بدمه الشريف و وضعت يدها تحت كتفه و رفعته قليلا الى السماء ثم قالت: اللهم تقبل منا هذا القربان" و عادت أدراجها صوب الخيام.

كلمة قصيرة أحدثت انقلاباً عظيما، فقد توقع اولئك الاجلاف القساة انهم يستطيعون أن يركعوا آل محمد وأن يطفئوا نورهم، ولكنهم نسوا ان وراء هذ الامر وريثة الحق و قائدة البيان و الصبر، زينب التي سوف تلقن الدنيا و تلقن كل ظالم درس الاباء و الكرامة و معنى التضحيه و الشهادة. ثم أنها بهذه الكلمة كشفت الحقيقة اللامعة لاستشهاد أبي الابرار و سيدالشهداء و هي فداء نفسه للعقيده و تقديم دمه و دم الطاهرين من أهله قرباناً للحق و اقامة دين الاسلام.

فعرّفت بذلك حقيقة كل معسكر و هويته، معسكر يزيد الذي باع آخرته بدنياه و اجتمع لقتل آل رسول الله، و معسكر الطهر و الايمان الذي رفض كل شيء من أجل الله. و لله در الشاعر الخطيب السيد حسن بن السيد عباس البغدادي حين قال:

يا قلب زينب ما لا قيت من محن
فيك الرزايا و كل الصبر قد جمعا
لو كان ما فيك من صبر و من محن
في قلب أقوى جبال الارض لا نصدعا
يكفيك صبراً قلوب لناس كلهم
تفطّرت للذي لاقيته جزعا

و قد حسب اولئك الظالمون انهم سوف يرون على زينب آثار الانكسار، أو إنها عندماترى أخاها على هذه الحالة سوف تمزق ثيابها و تلطم وجهها و تبكي و تنوح شأنها شأن كل امرأة كل امرأة ثكلى، ولكنهم اصطدموا حينما رأوا ثبات موقفها و رباطة جأشها، حيث أذهبت

نشوة النصر من رؤوسهم، و أشعرتهم بوخز الضمير و عذاب الوجدان.

و بذلك ابتدات زينب الكبرى مرحلة جديدة فى الجهاد، و هو الجهاد بالكلمة، و كانت قولتها تلك بجانب الجسد (اللهم تقبل منا هذا القربان) فاتحة لعهد جديد فى الثورة و فاتحة لاقوى سلاح اعلامى سوف يبدد أحلام الطغاة و يهز أركان عروشهم.

و تمزق قناع التضليل

أصعب ليلة مرت على عقائل بيت النبوة كانت ليلة الحادى عشر من المحرم، حيث أطفئت القناديل، و ضُرِّج الابطال بدمائهم و فُرّق بين رؤوسهم وابدانهم، و لم تبق سوى بقية خيام محترقة و أيتام وأرامل تكلى ودموع عبرى و صدور حرّى ولم تنس زينب رغم ثقل المصاب و فداحته علاقتها مع ربها و هى العابدة المتهجدة و لم تترك صلاتها فى ذلك الليل الموحش و رنين صوت أخيها و حبيبها الحسين فى أُذنيها و هو يودعها فى آخر ساعات حياته و يوصيها: أُخيّة لا تنسينى فى نافلة الليل[1] (و كيف تنساك يابن الطيبين و قد رأت شيبك الخضيب وجسدك السليب، و أنت مرّمل بالدماء) يروي الامام زين العابدين(عليه السلام): أنها ما تركت صلاتها(صلاة الليل) فى تلك الليلة الا أن رجليها لم تقويا على حملها، فصلتها من جلوس و ناجت ربها بقلب خاشع.

و لم تترك زينب صلاتها المستحبة هذه حتى فى أيام السبي و فى طريق الشام فقد قال الامام السجاد ايضاً:(ان عمتي زينب مع تلك المصائب و المحن النازلة بها فى طريقها الى الشام ما تركت نوافلها الليليه)[2]

و أسفر صبح الحادى عشر كئيباً و تهيأ الركب الهاشمي للسبي و رفعت الرؤوس على الرماح، و مروا بالركب على ميدان المعركة و مصارع الشهداء، امعاناً منهم فى ايذاء قلوب الأطفال و الارامل المحزونة بفقد أحبتها و بدأت سياط آل أميه تنهال على مخدرات الرسالة و ربائب الوحى و هن يرين فلذات اكبادهن موزعين على رمضاء كربلاء من غير غسل و لا تكفين؛ و تذكرت زينب وصية أخيها الحسين في آخر و داعه لنسائه و أهل بيته حيث قال: استعدوا للبلاء. إن الله حافظكم و حاميكم و سينجيكم من شر الاعداء و يعذب اعداءكم بأنواع العذاب، و يعوضكم عن هذه البلية بأنواع النعم والكرامة، فلا تشكوا و لا تقولوا بألسنتكم ما ينقص به قدركم و يحبط اجركم. فكانت تأمر النساء بالصبر و تعدهن جميل الاجر و تواسيهن بمصابهن مع أنها كانت مثكولة اكثر منهن، فقد فقدت زينب في يوم عاشوراء سبعة و عشرون فقط فى اهل بيتها (من أخوتها و ابناء إخوتها و ابناء عمومتها).

و صلت السبايا مشارف الكوفة و طافت بزينب ذكريات الأمس البعيد حينما دخلت الكوفة برفقة أبيها و أخوتها في أيام خلافته معززه مكرمة و هي اليوم تدخلها سبية أسيرة و لكنها حبست زفراتها و تجلدت لان الموقف يتطلب صلابة اكثر منها. أسرعت نساء الكوفة اللاتي اجتمعن لرؤية القافلة المسبية بتقديم التمر و الخبز للأطفال الذين كانت براءة منظرهم، و قد علاهم الجوع و التعب تهيّج العواطف و تُقرح القلوب. فانتفضت بنت على(عليها السلام) و رمت بالتمر و قالت: يا اهل الكوفة، نحن أهل البيت، لاتحل علينا الصدقات و أثارت هذه الكلمة (اهل البيت) همهمة فى الحشود التى اصطفت لرؤية السبايا التى قيل عنها أنها من الترك و الديلم، و تحت سياط الجلادين شقت احدى النساء الكوفيات الصفوف و وصلت الى المرأة المتكلمة و سألتها، و من أي الأسارىٰ أنتن؟ فأجابتها زينب و الأسى يقطع قلبها: نحن أسارى أهل البيت، و هنا أدركت هذه المرأة ان هذا الصوت قد سمعته من قبل نعم انه صوت زينب بنت الخليفة اميرالمؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام). و انتشر الخبر و كان كالصاعقة على أهل الكوفه، حيث تعالى صراخ النساء بالنحيب و البكاء و الويل و الثبور. و أسرع جلاوزة ابن زياد بادخال الموكب الاسير الى مسجدالكوفة خوفاً من انقلاب الامر. بعد ان كان الامر قد صدر بأن يطاف به فى سكك الكوفة و أزقتها.

هزيمة الباطل

في قصر الامارة، جلس الطاغية ابن زياد، يتصفح الوجوه الظاهرة لعقائل بيت الوحى علّه يرى فيها أثر الذل و الانكسار، ولكنه تمزّق لما رأى ان الامر

---

١) السيدة زينب فى الوجدان الشعبى رضا حسين صبح، ص ١٦

على عكس ما كان يتوقع فقد جلست امرأة عليها آثار الحشمة و الوقار و هى كاللبوة لا تأبه بأحد فسألها من تكون، فلم تهتم بسؤاله محتقرة كرر سؤاله ثانية و ثالثة و هى صامته، فقيل له: انها زينب ابنة علي، فانتصب غاضباً لهذا الاسم الذى ظل عليه حاقد، اذ قال لها مفتخراً الحمدلله الذى فضحكم و قتلكم و كذّب احدوثتكم، فما كانت فى بطل الرساله الا أن أجابت عليه و بكل جرأة:(الحمدلله الذى اكرمنا بنبيه محمد﴿صلى الله عليه و آله﴾ و طهّرنا من الرجس تطهيرا، انما يفتضح الفاسق و يكذب الفاجر و هو غيرنا يابن زياد)

أيه مرأة و بسالة، و أية قدرة و بلاغة فى أمرأة أسيرة لا تملك أية قوة، سوى قوة الايمان الصادقة تواجه بها طاغية جائر لا تعرف الرحمة طريقاً الى قلبه.

فاغتاظ ابن زياد و انتفخت أوداجه و عاد مكرراً سؤاله: كيف رأيت صنع الله بك و باهل بيتك؟ فردت عليه بصدر منشرح بالايمان: ما رأيت الا جميلا هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم و سيجمع الله بينك و بينهم فتحاج و تخاصم، فانظر لمن الفلج يومئذ ثكلتك امك يابن مرجانه)[1]

أية عظمة و منزلة قد اجتمعت لهذه الطاهرة التى فلسفت كلما رأته من محسن و بلايا عجزت عن احتمالها الجبال الراسيات، بانها أمرأ جميلاً مادام لله و فى عين الله. و أي عار قد ألمّ بوالي الكوفة و هو يرىٰ امرأة سبية تحاججه و تخاصمه بابدع البيان وأشجعه، و تبين له سوء عاقبته و لا تناديه باسمه بل تناديه بنسبه الفاضح و المنقطع عن أبيه فتقول له (يابن مرجانه)، هنا على مرأى و مسمع من جلاوزته و أعوانه فأغرق في الخزي و أخذ سوطاً لينهال به على السيده الحوراء فصده عن ذلك أحد مرتزقته و قد حسب عدو الله انه يستطيع أن يهزم زينب، وهيهات أن يكون له ذلك فقد هزمته و كبلته و أسرته بقيود ظلمه وجوره، و حوّلته من امير متوج الى اسير النيران و بئس المصير. و تلافيا منه لحراجة الموقف و الهزيمة النكراء التى لحقت به أمر باخراج السبايا الى خربة في الكوفة، ولف الخبر ارجاء الكوفه، و اجتمع الناس من كل مكان و هم يبكون و ينتحبون، ورأت بنت علي ان الفرصة قد حانت لأن توقظ أهل الكوفة من سباتهم و سكرتهم، و تبين لهم عظم الكارثة و الخطيئه التى توغلت أيديهم بدمائها و ذهبوا بعارها و شنارها. فاومأت الى النساء ان اسكتن، فسكتن و أصغىٰ الجميع الى خطاب سيدة البلاغة و الحكمة زينب فحمدت الله و أثنت عليه ثم قالت: أما بعد يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر، أتبكون، فلا رقأت الدمعة و لاهدأت الرنة. انما مثلكم كمثل التى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم، ألا و هل فيكم الا الصلف النطف ويلكم يا أهل الكوفه!! أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم؟! و أي كريمة له أبرزتم؟! و أي حرمة له انتهكتم؟! لقد جئتم شيئاً أداً تكاد السموات يتفطرن منه و تنشق الارض و تخر الجبال هداً الخ و ما أكملت خطبتها حتى تركت أهل الكوفة يموجون فى خطر عظيم، و هم حيارى لايدرون ما يفعلون، حتى قال بشيربن خزيمة الأسدى كما ذكر صاحب المقتل: و الله لم أرخفرة أنطق منها، كأنها تفرغ عن لسان علي، و قد رأيت الناس حيارى يبكون و أيديهم في أفواهم وسمعت شيخاً يبكي حتى اخضلت لحيته و هو يقول: بأبي أنتم و أمى كهولكم خير الكهول و شبابكم خير الشباب، و نساؤكم خير النساء و نسلكم لا يبور و لا يخزى ابداً.

و كان لخطابها الوقع الكبير في نفوس أهل الكوفة، فقد قرعتهم بمنطق الحق و العدل و شانت عليهم خبث سرائرهم و دهاء مكرهم و خساسة أنفسهم و وصفتهم بأحط وصف (يا أهل الختل و الغدر) و لم تأبه بتماسيح دموعهم بل أشارت عليهم أن يبكوا كثيراً و يضحكوا قليلاً لعظيم الجرم الذى اقترفوه و الذى لايغسل عاره أبدا، و كان لصدى هذا الخطاب الاثر الكبير في المجتمع الكوفي، فقد كسر حاجز الخوف فيهم و الذى كان يمنعهم من مواجهة ابن زياد و جلاوزته، و حدثت بعض المناوشات الكلاميه بين بعض الصحابه الذين كانوا الى عهد قريب من المقربين الى البلاط أمثال أنس بن مالك و زيدبن أرقم و حاججوه بما سمعوه ورأوه من رسول الله بحق الحسين الشهيد﴿عليه السلام﴾ و وقف الصحابي عبدالله بن عفيف الازدي يرد عليه عندما قال فى الحسين﴿عليه السلام﴾ و أهل بيته. فقال: يابن مرجانه الكذاب ابن الكذاب أنت و أبوك و من استخلفك و أبوه، اتقتلون ابناء

---

۱) ذكر ذلك ابن طاووس فى (مقتل الحسين) و قد رواه كل فى كتب في فقتل الحسين (خطبتها في مجلس ابن زياد و في أهل الكوفه)

النبيين و تتكلمون بكلام الصديقين و استمر يعنّف ابن زياد، فما احتمل ابن زياد هذه الحدة الكلامية من الازدي فيأمر بقتله ويقتل عبدالله بن عفيف الازدي.

و صارت الكوفة في اضطراب شديد فخاف ابن زياد من انقلاب الامر فأمر باخراج السبايا الى الشام قبل أن يأتيه الأمر من يزيد.

بلاغ الثورة فى الشام

و توجه الركب الى الشام، و قد عيّن ابن زياد أشد الناس ظلماً و قساوة لقيادة الركب، و قد ساروا بالاسارى في طريق شديد الوعورة، و لم يمضوا بهم في الطريق الطبيعي الذي تمر فيه القوافل خشية من انكشاف الحقيقة في هوية الشهداء و ألاسرى. فساروا في طريق مجهد و شاق يقول الراوي: لقد كان مسيرة الطريق شهراً للابل ذوات الصبر و القوه و لكن الحداد الغلاظ أرهقوا قدرتها، و أوجعوا صبرها، فقطعته الابل في عشرة أيام أومادونها، و لو لا أنها كانت تحمل عفافاً و طهرا ليس مثله في الارض عفاف و طهر لالقت بأحمالها حين كانت تفزعها اصوات الحداء) و لما اقتربوا من ابواب الشام رأوا ان المدينة قد تزينت و أهلها يضربون بالطبول و كأنهم في فرحة و عيد لا يعرفه غيرهم. و ادخل ركب الاسارى في قصر يزيد الذي جلس مزهوا و سكرة النصر قد ملأت رأسه، و القضيب بيده منحنياً به على ثنايا أبي عبدالله فلم تتحمل شقيقة السبطين هذا المنظر المؤلم، حتى نهضت بهدر صوتها بالحق في أرجاء البلاط الأموي فقالت: الحمدلله رب العالمين و صلى الله على رسوله و أله أجمعين صدق الله سبحانه حيث يقول" ثم كان عاقبة الذين اساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله و كانوا بها يستهزؤون".

اظننت يا يزيد حيث اخذت علينا اقطار الارض و آفاق السماء فأصبحنا نساق كما تساق الاسارى، أن ابنا هواناً على الله و بك عليه كرامه!!؟ فمهلاً مهلاً أنسيت قول الله تعالى "ولا يحسبن الذين كفروا انما نملى لهم خير لانفسهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما و لهم عذاب مهين".

حجج قرآنية و سنن آلهية أوضحتها بنت الولاية و الامامة في هذا المقطع الصغير فى خطبتها حيث أشارت الى العاقبة السيئة للذين يكذبون بآيات الله و بها يستهزؤون، و تريد بذلك يزيد الكفر الذى مافتأمستهزئاً و مكذباً لايات الله ففضحته و هو جالس على أريكة ملكه ثم أدانت عليه جريمته لسوقه بنات الرسالة سبايا وقتله لسليل النبوه و الصفوه الامام الحسين﴿عليه السلام﴾ فقالت ان ما بيدك من قدرة ملكت بها الارض و استطلت بها على كل شيء تقتل و تأمر ليس هو لمنزلتك عندالله و هواننا عنده بل هو إمهال له من الله و إملاء له ليزداد إثماً و كفراً فيرد به الهاوية و الخزى العظيم يوم القيامة.

ثم تناديه بنسبه الخامل و سوابق آبائه الكفرة الذين مادخلوا الاسلام الاعنوة و كانوا طلقاء رحمة جدها رسول الله﴿صلى الله عليه وآله﴾ فتقول له يابن الطلقاء امن العدل تخديرك حرائرك و نسائك و سوقك بنات رسول الله سبايا قد هتكت ستورهن و أبديت وجوههن... و يتصفح وجوههن القريب و البعيد...

و الأنكى من ذلك على يزيد و أتباعه أنها أشارت الى صغر قدره عندها و تعففها عن تكليمه و ترفعها عن مواجهته، ولكن مسؤولية الدين هى التى فرضت عليها قول الحق و كشف التضليل و الخداع الذى كان يتستر به هذا الفاسق الفاجر فقالت: والله اني لا ستصغر قدرك و استعظم تقريعك و استكثر توبيخك، لكنّ العيون عبرى و الصدور حرى.

ثم وقفت تهدده و تنبؤه بقرب زوال حكمه و ملكه الذى زلزلته بخطابها و بقاء ذكر الحسين و ملحمته البطولية خالده مدى الدهر فى ذاكرة التاريخ و في ضمير البشرية رغم ارادة الظالمين: (يا يزيد فكدكيدك واسع سعيك و ناصب جهدك فوالله لا تمحو ذكرنا و لا تميت وحينا و لا تدرك أمدنا و هل رأيك الا فند و أيامك الا عدد و جمعك الا بدد).[1]

و بذلك استطاعت زينب أن تخرق جميع الاقنعة التى كان يستتر بها بنو أمية باسم الدين و باسم القرآن، و ان تزيل ستار التضليل و التحريف و تبين أبعاد النهضة الحسينية فأذكت القلوب و أشعلت فتيل الثورة و أججت الوضع على يزيد و أتباعه حتى وقعت الفتنة في القصر حين دخول السبايا و عامة الناس الذين سخطوا عليه لجريمته الاثمة، حتى انه أخذ يلعن ابن مرجانه و عمربن سعد اللذين عجلا بقتل الحسين ليس حباً للحسين و انما خوفاً من انقضاض حكمه و انقلاب الناس عليه.

«ادامه در صفحهٔ ٥١»

---

١) اللهدف لابى طاووسى